مسيح لا ينهزم

قصة بقلم خناة بنّونة

هناك وهنا ... يتفجر الدمل عن اوبئة ... فتسيح من اوردته احداث وسموم ... تنتشر في رمشه ـ ليعمى العالم عن اي شيء ، سوى عن فجيعة ... فيا ايها المحروس بين قباب كنيسة وقبر لا يضم شيئا : اعد علينا حكايا العودة والنشور ... فلعل في جوهره ما قد يموت .

ومن لفائف الغيب انتفض يعود ... مجلل الراس باشواك القديم ... ومد خطوته وراء اعتاب كنيسة القيامة ونادى :

ـ لعازر ... يا لعازر ؟

والصمت الموبوء يفرس جرانيمه في المعمور ... وهل ليس غير الاغتراب اساسا للكون والعالم الحديث لا ينتصر الا للموت .

وتفجع :

ـ ما هذا ؟؟

كانت الشرائح والاحداث البشرية مطروحة في المدى ... تلفح الارض والتاريخ بخصب جديد .

واضاف :

ـ لم الموت عند الاعتاب !

واستمر يسير ... المسيح العائد يسير ... يتلمس بعينيه كل الخواء . فأين وأين أهلي ؟ يا لعازر ؟

كل رسالة لا بد من بشر.

وليس هناك غير الدم مهروقا على الوجه المقدس للدفعة الخالدة.

واين البشر ؟ هل عدت غريبا كما انتهيت ! ...

ونادى به صوت من نفسه ، جرب ان تجسدهم ... فالرسالات هكذا تكون ..

نشر ازراره على كتفه ... وبدأ رحلته ... الشرق والغرب ... وفي حكاية ما ... في المدى القريب البعيد ... التقط صوت يقول لرفيقه :

ـ (كانوا يدفعون بنا لان الموت حرام في حرب ٤٠ ... أما الان ، والموت ليس الا استشهادا ونورا فها نحن في التجميد !) .

فرد الآخر عليه :

ـ (الحقيقة اننا من كان يجب ان نكون لها . فليس غيرنا بالاخص من جاوز اهوال الاربعين ... ولكن !)

وبحث المسيح في مصدر الصوت ... ولكن الاتجاه تغير بينما الصوت استمر :

ـ (بالاضافة الى اننا نملك المعدات والجيوش والسواعد) .

ـ (لكن ما كل ذلك اذا لم يكن لمحو العار . علينا ان نبادر فالتاريخ لا يرحم .)

ـ (ادب ... العار ! وما العار ... كل العالم فيه .)

فخبط المسيح يده بجبهته وشوكها كمن يستنكر ، (العار ... لا !) ولكن يده سالت بدم ، فهمهم برضى : لا بأس ، كل الرسالات قد تتحرك بدم .

وتخطى هو الصوت او الصوت تخطاه ... وقطع امكنة ونشر صوته في الابعاد ونادى : يا لعازر ؟؟ واستغرقت رحلته من عمر الزمن مدة وخطاه لم تكن تقف به على أحد . وشيء في الدنيا كان قد مات ... والشرق والغرب قد ابدلا اسميهما : نفاق وغدر . وانت يا لعازر الا تجيب ؟ .. واستقرت غربة الرسالة وحيدة في اعماقه ، وفكر : قد تكون خدعة ... أن الموت رأيته عند مشارفي هناك ، فوارا صخابا في اجساد كانهار لا زالت تعيش ... بينما هنا هو كل شيء ... تحلل كل شيء وحتى أصبح كل الوجود موتا ... بلا علامات او اثر .

وظل يرحل ... يمدد ظله على الخلاء من الجهات الاربع وينادي ... فلا يظفر بنمنمة أو حركة أو صدى . وقرر :

ـ هناك عند فوهة « القيادة » أثر للحياة ... اموات تخبر بالحياة ... سأعود اليها .

ومن بين وحشة التوحد والعودة الكئيبة وموت الصدى ، لاح خيال . فقصده : شخص غريب تكسو عينيه نظرة لا تستقر على شيء . بينما عصاه تفتش في مزبلة .

ـ يا انت ؟

ـ ....

ـ انت ... يا انت ... ايها الشخص ... أين العالم ؟

فصدرت عن الشخص الغريب حركة جامدة ورأسه في الاسفل واجاب بلا اهتمام :

ـ لقد رحل .

ـ الى اين ؟

ـ الى الحضيض .

ـ الحضيض ! واين الناس ؟

ـ ومن انت اولا ؟

ـ انا المسيح .

ـ المسيح ! اوب ... فكرة قديمة .

بهلع :

ـ كيف ؟ فكرة قديمة! الست تقبل هذا ؟!

ـ ولا الزمن يقبل .

ـ ماذا تقول ؟!

ـ اقول لك : انظر عند مرابع القدس . فلقد حصحص الباطل ومات الحق .

فتراجع المسيح بسؤاله :

ـ ولكن اين الناس ؟ ... قل ؟؟

ـ لقد قتلهم من حاول قتلك !

فافتكر المسيح ، وسأله :

ـ لكن سمعت قبل برهة ، حديثا بلا اشخاص . فأين تراهم يكونون ؟

ـ في قفص الندم .

بلا صبر :

ـ اين الناس ؟؟

بلا اهتمام :

ـ لقد قلت لك : ماتوا بظلمهم ، لان الظلم يبتكر بغير هله .

وارسل المسيح نظرة فيما لا يراه . وزفر :

ـ لا يمكن ! اقتلهم يهوذا ! الم يكفه ما فعل بي ... الا زال يلاحقني . لا ... لا ... أعوذ بالله ... قد أكون أخطأت أصدقني القول سألتك بالله .

فصدرت عن الشخص آهة عميقة قبل ان يجيب :

ـ الله ! لطالما قرأت كثيرا من آياته !
ـ واذن ؟
ـ لا تقل شيئا ... ان هذا يمزق قلبي ... اني احس أن صوتي ظل تالفا لم يبلغ رحمته .
ـ ماذا تقول ؟!
ـ لا تعذبني اكثر .
ـ ومن تكون انت ؟
ـ النموذج الذي بقي .
ـ نموذج !!
ـ نعم ، نموذج ... الذي ليس فيه شيء يمكن ان يحطم يهوذا بعد ، لانه محطم من الاساس ، مفصول عن كل ما يمكن أن يجلب انتباه يهوذا : بلا معنى او انتساب .
ـ انك تحيرني ... بماذا اسمع ؟
ـ ...
ـ قل لي يا هذا ؟
فقاطعه :
ـ انسان اليوم .
ـ نعم قل لي يا انسان اليوم . ماذا يمكن لي ان افهم منك ؟
ـ الا تفهم شيئا .
بحنق :
ـ ايمكن ان يغدر يهوذا الى هذا الحد ؟!
ـ ليس بك وحدك . فبعدك صمم للناس من الدولار اله وقال كابليس : تالله لاغوينهم بك اجمعين . وفعل : فشم العالم الى فئتين . نفاق وغدر ، وركبهما لنفسه كجناحين ... وبدأ يفك .
ـ هكذا !! واين هو ؟
فاطلق الشخص الغريب ضحكة كالزعيق .. واشار الى المزبلة تحت عصاه . واجاب :
ـ هنا .
واحس المسيح انه تخلى قليلا عن صفاته . واستفسر :
ـ كنت اعتقد انني قد تحملت كل شيء عنهم ، وانني بذرت شرقا وغربا كل ...
فقاطعه :
ـ لم تلح انت على المسميات القديمة ، فلا شرق ولا غرب . الم اقل لك : النفاق والغدر فحسب . فهل تعود لتخدرنا من جديد .
ـ ولكنها مصطلحاتي الخاصة ... فأين المحبة والسلام والتواصل والرحمة والخير ؟
فبغض الغريب كتفيه بلا براءة ، واجاب :
ـ اسأل العلم .
ـ العلم ؟! ماذا تقول انت ، انك تحيرني .
ـ انه اسم آخر لاله جديد عبدوه .
ـ لا ... ليس هناك غير اله واحد ... ولقد علمتهم هذا .
فهز رأسه والعصا لا زالت في المزبلة . وقال بتوجع :
ـ حتى انا اعتقدت هذا ... ولكنه تخلى عني ... بينما العلم يستجيب لكل طلب .
ـ تخلى عنك ! ... الله لا يتخلى عن احد .
ـ لا تذكرني ... فذلك اليوم ... حينما شاهدت يهوذا وهو يقتل محبتك وسلامك ومثلك واهلي ... رجوت الله باحتراق باك ان يتدخل ... ان يجعل صولته فوق صولة التجهيز والعلم . ولكنه تركني .
ـ وماذا كانت النتيجة ؟
ـ الدمار .
ـ اما أنا فاعتقد انه اله .. اله في كل شيء .
ـ ولكنني اظن ... انني لو كنت قد ادخلت العلم في ايماني كما فعلوا . لاستطعت ان انقذ الانسان ونعيش .
فصاح المسيح :
ـ انك تعذبنني .
وتراجع :
ـ لكن لا بأس ... فذلك من متطلبات رسالتي .
وسكت قليلا ثم خطا نحوه وقال بتعاطف :
ـ لا داعي لهذا اليأس ... انني بجانبك .
فابتعد الشخص بعزيمة ورد بلا اهتمام :
ـ لقد فات زمن التخدير .
ثم اوقف العصا عن التجوال في المزبلة برهة . واضاف بتركيز:
ـ انج بنفسك يا سيدي ... فليست هناك من رسالة ان الرسالات باصحابها .
فحملق المسيح في اسفل العصا وابدل :
ـ وماذا تفعل ؟
ـ لا شيء ... انني اقطف الجراثيم ...
ـ ولكنك في حالة منحلة .
ـ ان تكن ، فليست بسببه ... فلقد سحقت يهوذا من حسابي: وانما هو صاد السماء !!
ـ لقد عدنا للرسالات .
فاصر الشخص :
ـ لكن ليس على طريقتك بالتأكيد .
فحرك المسيح رأسه بوجع :
ـ ايه يا يهوذا ! لاحقتني في اهلي ... ولاحقتهم في ... فوجودك حائل بين لقائنا . كنت أبرع مني ... مجرد مكر واجرام... حيث قتلتهم حتى لا اجد من القاه . ولكن ما العمل ؟
ـ انج بنفسك ... انه لكل مسيح بالمرصاد .
ـ والى اين ؟! فمن قبل ... لقيت اله في السموات حينما كنت مؤهل لذلك : حينما بذرت في الناس ما اعتقدت انه لن يموت ، اما الآن ...
ـ اما الآن ، فانظر عند « قبرك » ماذا صنعوا ... كيف قتلك بنوك بما فعلوا ... وكيف اجرموا في حق الذين ارادوا ان ينحوا يهوذا عن مسيرة التاريخ ...
بغضب :
ـ ان أولئك غير ابنائي .
باطمئنان :
ـ ولا هم عادوا يقبلون آن يكونوا : فليسوا غير أذيال ليهوذا .
فصاح بهم المسيح بحكم كل المقدسات :
ـ يا يهوذا ... ملعون من زمان ... وملعون في عودتي ... وملعون الى الابد ...
فدارت العصا دورة جوفاء ... ونطق الفم :
ـ ذلك شأنك ...
بينما تابع المسيح :
ـ الم يكفه ان يحمل دمي ، فحمل دماء كل مسيح .
وعاد الى الصمت . ثم تركه الى الكلام ، فسأل :
ـ واذن ؟
ـ واذن ! فلقد جئت في اللحظة المناسبة ، لتكون شاهدا على الوباء .
فنفرت خطواته قليلا ، وصاح صوته :
ـ لعازر ؟ يا لعازر ؟ ... لعا ... ز ... ر ؟!
وما اجابه غير صوت الشخص الغريب هنه :
ـ ها أنت ترى ... لقد قتل في صوتك الحياة .
ثم اضاف :
ـ عليك بالنجاة .
فانفطر صوت المسيح بألم :
ـ ان السماء لا تقبل رسولا بلا رسالة .
فرد الشخص بهوادة :
ـ قل للسماء ... ان متطلبات الآن ... هي في رسالات ارضيه

قادرة على فهم الجراثيم ويهوذا ... بنفس اسلحته .
فعاد صوت المسيح الى طبيعته :
ـ ولكن ذلك ما فعلته في الماضي ...
ثم استدرك :
ـ او هكذا اعتقدت .
ـ لكن الاصح انه هو الذي فعل : قضى عليك فيك وفيهم .
بأسى :
ـ اذن فقد هزمتني ؟
ـ لقد اعترفت ... وليس الحدث ببعيد .
بيأس :
ـ علي ان اقتل نفسي .
فرد الشخص بتجرد غير مبال :
ـ لقد مت فيهم من قبل ، وان تفعله حتى الآن ، فلن يكون ذلك غير انه يقتلك بيديك .
بشرود فشده :
ـ نعم ... فانا مقتول في كل جسد رأيته مطروحا عند الكنيسة ... مقتول بحكم يهوذا او تنفيذ اتباعي ... لهذا فلست الآن غير شبح مهزوم يعود علي ان اموت ... علي ان اموت ... ام ...
فخبط الشخص العصا بالمزبلة مقاطعا وهمهم :
ـ سيان هما : الموت والحياة .
فأكمل المسيح كأن لم يسمعه :
ـ لكن ... والرسالة ؟
فرد عليه بنفور متأوه :
ـ لا تسألني . لقد كنت من أهلها في الغمار صوفي ... ولكنها لم تبلغ بي خلاصا ان أملي ...
ولم يتم .. انتفض صوته عن حشرجة دامعة حزون ... فحاول ان يقهرها في العالم الادون ... في العصا والمزبلة والحركة التي لا تنتج .
ولكن المسيح لم يكن معه فهو ليس في الحشرجة الحزينة ولا الدمعة الجافة او الحركة الجوفاء . انه يدور بتركيز أو عيناه في مطلع الشمس وفي المدى صدى خابت لولادة سوف تحدث .
دعينا واذنا المسيح لا زالتا في مطلع الشمس والصدى. والحركة منه تحكي ان الحياة هي سلسلة من الحركات الابيدة . والشخص وحركته ليسا أصلا . والصدى يتحول في رأس المسيح الى فكرة . وحركة المسيح لا تتوقف وهو يقول :
ـ انني افكر في الاخرى .
فرمقه الشخص دون ان يبصره بينما افصح المسيح :
ـ في الرسالة الاخرى .
فذابت عن البصر . بعد الشخص . كتلة من الغمام ، واتضحت الرؤية قليلا في الرأس والنظر . واستفسر بلا يقين :
ـ أنت ؟
فلم يترك المسيح مطلع الشمس ، بل تحول بحركته بحيث اعطى لعينيه وضعا ليسعا الشمس والشخص والنور والصدى ، واوضح :
ـ نعم . فان لم تعد رسالتي تحقق أي خلاص . فلن اعتقد بعد الآن في غير رسالة متطورة ... اذ كما فهمت منك ... فلن تكون لهذا العصر غير رسالته هو ، المشبعة الى حد ما لرسالتي ، وذلك حتى لا اموت ، فاهزم مشاريع الفناء في تخطيطات يهوذا .
فانفتحت عينا الشخص . واتضحتا اكثر . واستمر المسيح :
ـ وكما اكاد اعتقد ... فان هنالك ، يمكن لي ان ابحث عنها واسأل ، لان الصدى قد قبل به العالم في ... سوف اعود اليهم ... فقد شاهدت الموت فيهم كأنه حياة ... حياة ...
فانفعل كيان الشخص وارتعد . كانت اطباق من اليأس تسقط عنه برعدته . ليرد باصرار حقيقي لجنس بأثمه :
ـ ذلك لانهم لم يموتوا .. ابدا لن يموتوا ...
وبغتة ارتج الصمت والصدى من بقعة النور ... من ساحة الموت الطري الذي لن يموت . والتزم :
(احنا لها ...) .. (احنا لها) ... (احنا لها) ...
فترك الغريب العصا والمزبلة والتفت ... بينما ارتاحت قامة المسيح في نشور الصمت الوليد الصخاب : لعازر ... لعازر الذي يعود ...

٩ ـ ٦ ـ ٦٧

فاس

خناة بنونة

دار المصراتي

للطباعة والنشر والتوزيع

طرابلس الغرب ـ ليبيا

تقدم كتاب

لغز الحياة

للدكتور مصطفى محمود